

الاحساء ونزل في عُقْرُبا المعروفة وحاصر بلدة العمارية حتى هزلت مواشيهم وأصابتهم  
 اضرار كثيرة . ثم سار الى الدرعية ونهب بيوتها فقتل اهل الدرعية كثيراً من  
 قومه وفرّ العلماء الى بلادٍ يجدون فيها راحتهم . ولما مات سعدون المذكور سنة  
 ١١٣٨ هـ = ١٧٢٥ م عُمِّرت منازل بني هلال ومنازل بني سعيد وآل بني سليمان  
 في بلدة الروضة المعروفة في ناحية سدير . فتنفس العلماء الصعداء وعاد أغلبهم من  
 مقرِّهم الى مقرِّهم . و بعد ذلك بمدة ظهر آل سعود في الدرعية واستولوا على بلاد  
 نجد والاحساء والقطيف وعمان والعسير وجبل شمر ( جبل طي ) واتقادت لهم  
 القبائل والبلاد وحصل من أمرهم ما هو مشهور . ورجع العلم الى دياره وانبعث من  
 قبره كما سنذكره بعد ذلك ان شاء الله تعالى

بغداد

سائنا

## عجبت أيها القمر

الآن وقد أظلم الليل وبدأت النجوم تنضح وجه الطبيعة التي أعيت من طول  
 ما انبعثت في النهار برشاش من النور الندي ينحدر كأنه قطرات من الأمواج  
 المتلاطمة في بحر النسيان الذي تجري فيه السفن الكبيرة من قلوب عشاق مهجورين  
 برحت بهم الآلام ، والزوارق الصغيرة من قلوب أطفال مساكين تنزعها منهم  
 الأحلام ، تلك نحمل الى الغيب تعباً وترحاً ، وهذه لعباً وفرحاً ، والغيب كسجل  
 اسماء الموتى تختلف فيه الألقاب ، وتباين الأحساب والأنساب ، وتتنافر معاني  
 الشيب من معاني الشباب ، وهو يعجب من الذين يسمونه بغير اسمه ولا يعلمون  
 انه كتاب في تاريخ عصر من عصور التراب

والآن وقد بدأت الطبيعة تتهد كأنها تنفس بعض اكدارها ، أو تعلي في  
 الكتاب الأسود أخبار نهارها ، وبدأ قلبي يتنفس معها كأنه ليس منها قطعة صغرى ،  
 بل طبيعة أخرى ، والله ما اكبر قلباً يسع الحب من قبلة اللقاء الى ذكراها ، ومن

حياة الصبي الأولى الى ما يكون من الجنة أو النار في أخراها ، إن هذا هو القلب الذي ترى فيه الطبيعة كتاب دينها المقدس فاذا لحق العاشق الذي يحمله بربه تناولته وهي جاثية كأنها في صلاة الحزن ثم قبلته ثم قلبته ثم أودعته في مكتبة الابد لأنه تاريخ قلب آخر بل هو جزء من الموسوعات الكبرى التي يدون فيها الدهر تاريخ النفس الانسانية على ترتيب بعينه تعلم الناس منه أن يبدو لغاتهم جميعاً بحرف ( الألف ) لا لأنه من أقصى الحلق ... بل لأنه من أقصى القلب ، بل لأنه من أقصى التاريخ ، بل لأنه أول اسم ( آدم ) ذلك العلم الأول في تاريخ الحب والآن وقد رقت صفحة السماء رقة المنديل ، أبلتة قبل العاشق في بعاد طويل ، أو هجر غير جميل ، وتلألأت النجوم كالإبتسام الحائر على شفطي الحسنة البخيلة كأنه قطرة من الندى تلمع بين ورقين من الورد . وأقبل الفضاء يشرق من أحد جوانبه كالقلب الحزين حين ينبع فيه الأمل ومرّت السمات بلبلة كأنها قطع رقيقة تآثرت في الهواء من غمامة ممزقة . وأقبلت كل نفس شجية ترسل آهاتها الى نفس أخرى كأنها أحلام اليقظة . ونظر الحزين في نفسه والعاشق في قلبه ونام قوم قد خلت جنوبهم فليس لهم نفوس ولا قلوب . ولبس الكون تاجه العظيم فأشرق عليه القمر

والآن وقد طلعت أيها القمر لتملأ الدنيا أحلاماً وتشرف على الارض كأنك روح النهار الميت ما ينفك يتلمس جوانب السماء حتى يجد منها منفذاً فيغيب . فهلم أبئك نجواي أيها الروح المعذب واطرح من أشعتك على قلبي لعلي أتبين منبع السمعة التي فيه فأزفها ، إن روحي لا تزال في مذهب الحس كأنها تجيش للبكاء ما دامت هذه السمعة فيه تجيش وتبتدر . ولكن اذا أنا سفحتها وتعلقت بأشعتك الطويلة كأنها معنى غزلي يحمله النظر الفائر فلا تلقها على الارض أيها القمر فان الارض لا تقدس البكاء وكل دموع الناس لا تبل ظمأ النسيان ولو انحدرت كالسيل يدفع بعضها بعضاً

أرأيت أيها القمر هذا النهر الصافي الذي يجري كأنه دموع السحر من أجفان

هاروت وماروت ويطرد بجملة كأنه قطعة من السماء هاربة في الأرض . وهل ترى في شاطئ تلك الشجرة الناضرة المحتلثة بالاوراق كأنها مكتبة يتصفحها الهواء ؟ هذه هي مثال الفلسفة الطبيعية فكل حكيم لا يثبت على شاطئ الدموع الشريفة فهو فيلسوف جاف كأنه مصنوع من جلود الكتب . وما دمعتي إلا النهر الذي نبت في شاطئه وهي أطهر شيء وأصفاه لأنها مخلوقة من ثلاثة عناصر تقابل العناصر السماوية . من الحب الذي يقابل عنصر النار ومن اللين الذي يقابل عنصر الهواء ومن البكاء الذي يقابل عنصر الماء

ليس كل من عصر عينيه فقد بكى . ان البكاء لأشرف من ذلك . وكما يكون الضحك أحياناً حركة في الأفواه تبعثها العادة كحركة الحواس الغليظة فيضحك المرء وقلبه صامت كذلك يكون من البكاء ما هو حلم الأسمى لأن في العين حاسة لا بد من تمرينها أحياناً تسمى حاسة الدموع

وما إن لقيت باكياً الأ رأيت وجوه مقبلاً علي كأنه يسألني : ترى من أين يُذبح الانسان اذا كانت دموعه هي دماء روحه ؟ ذلك لأن الدموع لم تعد على طبيعتها دموعاً بل هي علامات الألم او السخط . الألم من المخلوق والسخط على الخالق فهي الفاظ من لغة العجز قد تكون أفصح منها كلمات السفاه والغبط والحق وما إليها

ولكن الباكي بها لا يجد من الجراءة ما يرفع صوته من حفرة الخلق اضعف إحساسه بالذل السياسي او اضعف قلبه بالتقوى التاريخية فيرفع صوت روحه وهي تتكلم من العين

أريد أن أبكي أيها القمر لأنه يحيل الي ان حقائق كثيرة تغتسل بدموعي وأني لا اكون في حاجة الى البكاء إلا حين تكون هي في حاجة الى الدموع . ولقد شعرت مراراً باهتزاز عقلي في تصفح الأسفار ، واضطراب نفسي في متاحف الآثار ، واختلاج قلبي في معابد الطبيعة التي قامت الجبال في بنائها لأنها أحجار ، فما أفدت من كل ذلك ما أفدته من دموعه تفود في صبيها ، كأنها روح عاشق

يطاردها الموت بين يدي حبيبها ، فان في هذه الدمعة ثواب آلامي ، وبقظة الحقائق  
من أحلامي

وما زلت حائراً في أمر مشتبه لا أُصيب الوجه فيه فلا أدري اذا كانت هذه  
الدموع المتساقطة تنقض من بناء الحياة لينهد ، او هي تضاف اليه ليشتد ، فاني  
أرى أقواماً يحيون بالدموع وآخرين يموتون بها . ولعل عين الانسان ملئت بالدموع  
من اصل الفطرة لتكون منها خنادق مستفيضة حول الروح فلا يقتحمها الفكر ولا  
يرى أبداً الاً ظاهرها . ولولا ذلك ما بقيت الروح من أمر الله

أولسنا نرى الذين يكون كثيراً يؤملون ان يدركوا من أسرار الروح كثيراً  
اذ يرون تلك الخنادق قد أخذت تمج ما فيها فكأنهم بالماء قد غيضاً وكأنهم  
بالأمر قد قضي

ولكن الانسان ليس إله نفسه فمتى انكشفت أرض الخنادق الروحية ظهرت  
فيها حفرة القبر وكانت آخر دمعة تجف منها هي دمعة الموت

بيد أن الحقائق التي تهى للبائسين ذلك الأمل بكثرة ما تفيض أعينهم من  
الدمع هي في رأي الناس علم وفلسفة لان الجهل في الانسان لا حد له فكل ما ظهر  
به عده حداً علمياً . أولا ترى ان أجمل ما في الديانات والشرائع قد تحول الى  
حجارة البيع والصوامع والمساجد والأضرحة والمحاكم والسجون وكثير من مثلها حتى  
صارت هذه الأبنية تفهم الناس من ضروب المعاني اكثر مما تفهمهم الكتب  
السماوية في الارض والارضية في السماء

ما لي ولك ايها القمر لا أحب ان أفيض عليك دمعتي فقد ترى فيها أشعة  
كثيرة من ألوان الأسرار المختلفة . بل أنا أراها في قلبي وقد اشتمل بها الخيال  
الحزين . خيال هذا الأمل الذي يسميه الناس ( الحب ) وتسميه الطبيعة ( الحياة  
المعذبة ) لان الناس قد مضوا على ان لا يعرفوا الحقيقة الا باوصافها ولا يعرفوا من  
أوصافها الا ما يتعرف اليهم من ظاهرها الجميل . اما باطن الحقيقة الذي يحتوي  
السر المحزن فهذا يعرفه من يفهم لغة الطبيعة وما لغتها الأفعالها . وأنت فاذا أردت

ان تدرس علم البلاغة من هذه اللغة فادرس المصائب والآلام والأحزان أنها هي أقانيم البلاغة الثلاثة : المعاني والبيان والبديع وانك ان درستها وتدبرتها شواهدنا الصحيحة التي لم يصنعها رؤاها أصبحت أفصح من ينطق عنها في هؤلاء البكم الذين يقرأ احدهم صفحة الزهر بعينين في أنفه . . . ولا يستحي الغبي أن يقول لك ان في الزهرة معنى جميلاً

فن أحب ورأى حبيته من فرط اجلاله إياها كأنها خيال ملك يتأمل له في حلم من أحلام الجنة . ورأى في عينيها صفاء الشريعة السماوية وفي خديها توقد الفكر الإلهي العظيم وعلى شفيتها احمرار الشفق الذي يخيل للعاشق دائماً ان شمس روحه تكاد تُمسي . ورآها في جملتها تمثال الفن الإلهي الخالد الذي يُدرَس بالفكر والتأمل لا بالحس والتلمس فأطاعها كأنها ارادته واستند اليها كأنها قوته وعاش بها كأنها روحه . فذلك هو الذي يشعر بحقيقة الحب وهو الذي يقول لك صادقاً مصدوقاً : ان كل لفظة من لغة الطبيعة في تفسير معنى الحب كأنها صلصلة الملك الذي ينجأ الانبياء بالوحي في أول العهد بالرسالة

ليس كل ما يعجبك يرضيك ولكن كل ما يرضيك يعجبك فالجمال الوصفي الذي يقاس بالنظر ويخرج منه الفكر بنسبة هندسية جمال صحيح وحرى أن يكون معجباً ولكنه على كل حال بناء جسي كالفصر المشيد الذي يعجب الفقير المعتم فيتمناه فان هو صار له خالياً لم يرضه لأنه لا يلتحف سقوفه المودعة ولا يفتش أرضه الموطاة ولا يلبس جدرانه الموشاة ولا يقتات من هوائه الطلق . أما الجمال الذي يرضي فهو الذي يشف عن صورة روحك بنير ما يخيلها لك ماء الحياة العكر هذا الذي لا يشف عن شيء ولا يزال يضطرب فيجعل شبحك في اختلاطه كأشباح البهائم اذا ضربت في الماء بأرجلها . فتري من ذلك الجمال كأن ملكاً هبط عليك من السماء وفي يده مرآة فنظرت فاذا صورتك بعينها ولكنها في يد ملك وقليل أن يجد الناس مثالا من ذلك الجمال فكثير منهم يجحدونه ويرونه ضرباً من الوصف الشعري الذي يظهر في خلقه وابراره مقدار ما في الشعراء من روح

الله . وانما يجحد مثال الجمال الكامل من لا يستطيع أن يكون مثال الحب الكامل  
وإذا كانت المرأة قد علاها الصدا فكيف يعاوها الوجه الجميل . وكيف تخلص الى  
روحك من طين هذه الكأس الزجاجية ( المرأة الصدفية ) نشوة الجمال ولو سكنت  
فيها حور الجنة كل ما في خدودها

ولقد قيل ان قوماً من العرب ترحلوا عن بعض منازلهم فكان من أنسائهم (١)  
قطعة امرأة صقاية كأنها وجه المليحة التي نسيتهما فمرت بها ضبع كأشأم ما خلق الله  
قبح طلعة وجهامة منظر حتى كأن في وجهها تاريخ الجيف التي اغتدت بها . فوقفت  
عليها تعجب من اشراقها وسنائها وما كادت تنظر فيها حتى راعها وجهها ولا عهد لها  
برؤيته من قبل لأن الله رحيم ومن رحمته أن لا تعرف الوحوش أنها وحوش وأن  
لا تجد أسباب هذه المعرفة . فانقبضت الضبع وزوت وجهها وقالت : من شر ما  
أطرحك أهلك أيها المرأة . . . !

فجمال هذه الضبع الذي جحدته المرأة كما يجحد الكافر رحمة الله وحسنها الذي  
أحاطه قبحاً كما يُحيل الطبع اللئيم كل حسنة تتصل به هما أشبه شيء بالعقل والقلب  
في المحب الاخرق الذي يحب بحواسه فتجوع روحه وتشبع وتعتل بالثخمة ايضاً . . .  
وكم في الناس من مثل هذه الضبع وكم في الحسان من مثل تلك المرأة

ما احسب الاحساس الا نكتة صافية في القلب تقابل نكتة العين التي يكون  
بها البصر فكل ما انطبع في هذه انطبع في تلك لكي تكون الروح بين مرأتين  
فيسهل عليها أن تدرس الحقيقة بالمقابلة فاذا نزل الشاعر الحساس بروضة غناء احس  
بقلبه كأنما يخضر بعد يبس . واذا اطل في الغدير الصافي احس بمعنى الماء ينصب  
في عروقه . واذا نظر الى وجه الجميلة الحسناء فلماذا لا يحس ان قلبه امتلاً جمالاً حتى  
كأنه لا يعشق الا شيئاً في نفسه

بلى واكثر من ذلك فان الشاعر ليكتب عن مجبها فيرى كأنه ينفخ في كل

(١) الانساء ما ينسأه القوم المترحلون من هنات المتاع وكان العرب اذا

تحمّلوا قالوا انظروا أنساءكم

كلمة معنى من الحياة لأنه لا يكتب كلاماً بل يخط صورة قلبه . والعواطف الحية تبقى حية ولو كانت مرسومة لانها لا يجتمع في شكلها الذي تنتهي اليه إلا بعد أن تمر في أدوار الحياه فتألفها الأرواح وتصير كاللفظ ما هو إلا أن يذكر حتى ترى معناه للذهن مائلاً

بلى واقدم يجبل الي أيها القمر الجميل حين أكتب عن أهواها انك لفظ في ألقاظي تطلع من المداد فاذا قلت « وجهها » فهل تظن هذا اللفظ الذي هو جملة الجمال الاقرا في الكلام . واذا قلت « ابتسامها » فهل ترى الحروف الأالفجر الندي واذا قلت « هي » فهل ترى الأ « ضمير » الطبيعة التي تأخذ عنها الانسانية دينها ؟

آه لو تعلم أيها القمر من « هي » !

مصطفى صادق الرافعي

## في رياض الشعر

﴿ رأي مختبر عاقل ﴾

عديري من خاقي باسل	أحدًا وأمضى من الذابل
صليب على القسر لا يلتوي	إذا غمزته يد الناقل
إذا شاقني الأمر صعب النوال	مضيت ولو أنه قاتلي
وان حال من دونه حائل	مشت أخصاي على الحائل
حديد قوى النفس ذوهمة	تضايق في جسد ناعل
وأورثنيهم — أفتي أميل	وأورثهم — أفتي مائل

•••

بلوت الزمان وأهمل الزمان فخذ رأي مختبر عاقل